

الطريق إلى الفوز في الانتخابات يمر من عتبة المنزل العتيق في النجف الأشرف

منزل السيستاني

من دخله أمن على مستقبله السياسي



كرم نعمة
كاتب عراقي
مقيم في لندن



من قبل أسرة عراقية من آل شبر، وقد استأجره السيستاني منذ عام 1971، بقيمة 500 دولار شهريا. وهذا المبلغ يتناسب كما يبدو مع بساطة المنزل.

كل القراءات تستبعد أن يكون محمد رضا نجل المرجع الشيعي يشارك والده في السكن في المنزل، لأنه رجل "مترف" عكس والده، ويدير إمبراطورية مالية ضخمة أسوة بكبار رجال الأعمال، لكنه بهيئة وعمامة رجل الدين؛ ما يظهر من المنزل في الصور القليلة، أرائك بسيطة يجلس على واحدة منها السيستاني مقابل الضيوف. وكل الصور التي التقطت لاستقبالات المرجع الشيعي الأعلى كانت من زاوية واحدة، الأمر الذي يكشف ضيق المساحة وانعدام الخيارات أمام حركة المصور الفوتوغرافي لإظهار السيستاني مع ضيوفه الموعودين.

لا أحد من ملايين أتباع المرجع الشيعي قدر له أن يستمع لهذا الرجل عن قرب بالأمس واليوم، والمرات التي ظهر فيها السيستاني على شاشات التلفزيون كانت نادرة جدا. ابتداء بعد عام 2003 عندما غادر إلى لندن للعلاج، ثم في صور مكررة من زاوية واحدة يستقبل فيها السياسيين والزعماء في منزله المتواضع، والمره الوحيدة التي قبل فيها أن يستقبل مراسلي وكالات الأنباء العالمية، المشترط عليهم ألا يصطحبوا كاميراتهم وأقلامهم وهواتفهم. وما سيكتوبونه لاحقا يعتمد على ذاكرتهم. وبالفعل خرج لنا مراسلو وكالات فرانس برس ورويترز وأوسشيد برس بتقارير قصيرة ومقتبعة عن حديث السيستاني. لم يذكر في تلك التقارير النادرة شيء عن التفاصيل المحيطة بالمرجع الشيعي الأعلى.

الحج السياسي

كان طبيعيا أن يلتقي الرئيس الإيراني الراحل هاشمي رفسنجاني في زيارته للعراق إبان السنوات الأولى من الاحتلال الأمريكي للسيستاني في منزله، وكان طبيعيا أيضا أن يزوره لاحقا الرئيس الإيراني السابق حسن روحاني بصحبة وزير الخارجية محمد جواد ظريف، فذلك شأن إيراني - إيراني وإن حدث على أرض العراق.

لكن ما يحتاج إلى تفسير سياسي مقنع أن يقوم سعد الحريري رئيس الوزراء اللبناني السابق بالتبرك بزيارة السيستاني في بداية اختياره لرئاسة الحكومة آنذاك. ثم رئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بري لـ"الاسترشاد بتوجيهاته الحكيمة". والأكثر سوربالية سياسية ما تمثل بزيارة مبعوثة الأمم المتحدة جنين هينيس بلاسكارت، إلى السيستاني والجلوس في حضرته للاسترشاد السياسي.

لم تنزع بلاسكارت حجابها بعد خروجها من المنزل الصغير ووقفت أمام العدسات والميكروفونات لتؤكد

هناك منزل عتيق وصغير في أحد أزقة مدينة النجف الضيقة لدرجة يصعب معها أن تدخله مركبة صغيرة. الأصعب من ذلك أنه ليس بمقدور أي من العراقيين المرور في هذا الرقاق في مدينتهم المقدسة. وعصبي على الفهم للأناس البعيدين عن النجف إدراك طبيعة حياة جيران هذا المنزل، إن كانت تمر طبيعية في الرواح والمجيء أم لا، وهل بمقدور الأطفال أن يلهووا أو يلعبوا كرة القدم في ذلك الرقاق؟ لكن عنقاة هذا المنزل وبساطته ووجوده في رقاق ضيق في أحياء المدينة المقدسة القديمة، لا تغير شيئا من أهميته وتأثير السياسي والديني على ما مر على العراق منذ احتلاله عام 2003 من قبل القوات الأميركية.

أهمية الزيارة

كان الحاكم الأميركي للعراق بول بريمر يعرف أهمية أن يتم التوافق مع صاحب المنزل العتيق في النجف الأشرف، مع أنه لم يلتق به، وفق الرسالة الشفهية التي وصلته آنذاك "من الأفضل لكم ولنا ألا نلتقي" بينما كان الوسطاء جاهزين لتبادل إيصال الرسائل. انتقلت الأهمية لاحقا إلى قادة الأحزاب والسياسيين العراقيين، فكان بالنسبة إليهم الدخول إلى ناصية البيت القديم طريق تركية وقبول سياسي وشعبي للمكوث في المنطقة الخضراء.

هكذا حافظ هذا المنزل العتيق على دوره البارز في رسم مستقبل البلاد الغارقة في التراخي السياسي المظلمة. مع أن ساكنه رجل دين لا يزال يحتفظ بجواز سفره الإيراني لكنه حاصل على مرتبة آية الله ويدير مرجعية الشيعة في العالم ويقفده ملايين الأتباع.



ساكن المنزل رجل دين لا يزال يحتفظ بجواز سفره الإيراني، لكنه حاصل على مرتبة آية الله ويدير مرجعية الشيعة ويقفده ملايين الأتباع

لا توجد معلومات متاحة عن تفاصيل هذا المنزل ومساحته وعدد الغرف فيه ومن يسكن فيه مع آية الله علي السيستاني، لكن بعض المعلومات غير الرسمية التي نشرت مع زيارة البابا فرنسيس للسيستاني في مارس من العام الحالي تشير إلى امتلاكه

رفع من مرتبة السيستاني، فكان جاهزا لرئاسة المرجعية بعد وفاة السيزواري. واحدة من الصور "غير المؤكدة" تذكر لقاء السيستاني بالرئيس العراقي الراحل صدام حسين، بعد فترة من اللقاء الشهير الذي جمع الخوني بصدام في عام 1991 وظهر على شاشات التلفزيون آنذاك.

يستمتع صدام إلى كلام السيستاني بالقول "سيدي الرئيس لا تصدق كلام متناقض المرجعية الذي يصلكم فحتم أكتافي من خير العراق"، ما يمنح مصداقية لهذا الكلام، أن وزير الإعلام العراقي الأسبق محمد سعيد الصحاف أظهر على الشاشات صورة من فتوى تحمل إمضاء السيستاني الصريح بتحريم التعاون مع المحتل الأميركي قبل الهجوم الأميركي على العراق عام 2003.

كما أن الرئيس ذاته، بعد انهيار نظامه عام 2003 وجه أكثر من خطبة مسجله صوتيا أشاد فيها بموقف السيستاني.

هل حظي مقتدى بلقاء السيستاني

مهما يكن من أمر، فإن السيستاني كما يعلن المقرّبون منه خلال السنوات الماضية من أنه فقد الثقة بكل الطبقة السياسية الفاسدة والحاكمة للعراق وأقل باب منزله أمامهم، لكن تلك الطبقة مازالت متشبثة برضا السيستاني، وعادة ما يستنجد رؤساء الحكومات في المنطقة الخضراء بجملة "أثر توجيهات المرجعية الرشيدة" في كل قرار سياسي وعسكري مصيري، وجميعهم يحلم اليوم بزيارة منزله، لأن وضع أقدام أي مسؤول عراقي على عتبة تلك الدار الصغيرة، شهادة رضا وقبول لا تقدر بأي ثمن سياسي.

متواضع ومخلص لقيمه الدينية، تلك حقيقة تبدأ من عزلته وتكشفه، مع أن المرجعية الدينية تدير ثروة مالية ضخمة توازي ثروات دول. كما أن احتفاله بجواز سفره الإيراني إلى اليوم ورفض كل توسلات السياسيين العراقيين لنيل محظيته بمنحه الجنسية العراقية، تؤكد حقيقة احتفاظ رجل الدين الإيراني بما هو عليه الآن منذ وصوله إلى العراق عام 1952.

مع ذلك ترفع صور السيستاني وتعلق في الطرقات وخلال الاحتفالات والمواكب الشيعية أكثر مما رفعت صور أي رئيس عراقي في التاريخ المعاصر. العصبي على الفهم أيضا، لماذا لا يرفض السيستاني بما أنه يعلن رفضه إدخال الدين في السياسة، الدور السياسي الذي يراه له، سواء بموافقة أم بغيرها، بأنه وحده القادر على إضفاء الشرعية السياسية على ما تصدره الحكومة العراقية. فقد مر الدستور الجديد بعد الاحتلال الأميركي وقانون الانتخابات وتأسيس الحشد الشعبي من تحت عباةته "عندما خرج الحشد عن سلطة الدولة، طلب من المرجعية فتوى مقابلة لعله، فردت المرجعية بأنها لم تصدر فتوى تشكليه كي تحله، وفتوى جهاد مقاتلة داعش لا تعني تأسيس الحشد".

في التاريخ القريب، كل المعلومات تتحدث عن زهد السيستاني منذ وصوله إلى العراق، قادما من إيران شابا لدراسة الفقه الشيعي في النجف، ثم الاستمرار في تقلد المواقع داخل المرجعية، وشوهد يصلي على جثمان المرجع الشيعي آية الله أبو القاسم الخوئي بعد وفاته في تسعينات القرن الماضي. وتقلد آية الله عبد الأعلى السيزواري المرجعية بعد الخوئي

لحشد من الصحافيين كانوا بانتظارها على ثمة ذلك اللقاء، مشددة على أن "المرجع الشيعي السيد علي السيستاني، يساعد تنفيذ إصلاحات جديّة خلال فترة زمنية معقولة". وعندما توجه البابا فرنسيس في زيارته التاريخية إلى منزل السيستاني، أظهرت لنا الصورة المشتركة تعابير شفقة البابا على هذا الإمام الموهل في عزلته، لكنه يدير ويؤثر على بلد عدته كل التقارير الدولية في ذيل قائمة البلدان الفاشلة منذ احتلاله عام 2003.

وتبدو المقارنة غير عادلة بين رجل الدين، فالبابا القادم من عمق اللاهوت المسيحي وأروقة مبنى الفاتيكان المدجج بالفخامة المعمارية، رجل منفتح على العالم الجديد ويقضي بعض أوقاته في التمتع بمشاهدة كرة القدم مع قرح من الجعة الباردة، بينما لا أحد يؤكد لنا إن كان يتوفر جهاز تلفزيون في منزل السيد السيستاني!

بالطبع زارت ذلك المنزل الصغير شخصيات سياسية مرموقة ومؤثرة على مستوى العالم، من بينها بان كي مون عام 2014، كما زاره أغلب ممثلي الأمين العام الذين تم تعيينهم في العراق بعد احتلاله عام 2003. لكن السيستاني وفق قداسته الشيعية لم يبادل أي من هؤلاء الزيارة، ليس جحودا أو رفضا، بل لأننا لم نشاهده يغادر منزله أصلا إلا نادرا، فكيف به أن يزور الآخرين على أهميتهم.

في كل هذا الكلام عن أهمية السيستاني في صناعة مستقبل العراق، لا أحد بمن فيهم رجل الدين الشيعي نفسه، قادر على الإجابة على سؤال: من أعطاه التخويل السياسي لذلك؟ هو

شخصيات زارت منزل السيستاني

- الأمين العام السابق بان كي مون
- الرئيس الإيراني الراحل هاشمي رفسنجاني
- الرئيس الإيراني السابق حسن روحاني
- رئيس الحكومة اللبنانية السابق سعد الحريري
- رئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بري
- بابا الفاتيكان فرنسيس

دعك من الفساد الذي شاب مشاريع المرجعية المليارية، وتسبب بحرج شديد للسيستاني المكتفي بتشفه وعزلته في ذلك المنزل الصغير. إلا أن تأثيره السياسي على البلاد التي لم تخرج من الهوة العميقة، مازال قائما ومؤثرا. مع أن السيستاني وبساطة شديدة ومن جديد، رجل دين إيراني يعيش في العراق؛ ولا أحد من رافعي صورة السيستاني والمنتشبين برضاه من السياسيين وقادة الأحزاب، يريد قبول هذه الحقيقة الواقعية البسيطة. هذا الأسبوع عاد السيستاني وداره الصغيرة إلى منصة الأخبار "ومتى غاب" مع الصور والفيديو القصير التي تم نقلها لمقتدى الصدر وهو يخرج من ذلك الرقاق الضيق.

كالعادة لا يوجد من يؤكد أن السيستاني قابل الصدر وتراجع عن الانطباع السائد عند كبار رجال المرجعية الشيعية عن "الولد الشقي المنافس للمرجعية، رغم أميته الدينية والسياسية". لكن المقرّبين من الصدر أشاروا إلى لقائه من مقرّبين من المرجع الأعلى للتحقق بشأن عودة الصدر وتجاره للمشاركة في الانتخابات البرلمانية المؤمل إجراؤها في أكتوبر المقبل.

هل دخل مقتدى منزل السيستاني أم لا، إن كان كذلك فقط حصل على الجائزة الأثمن التي يتنافس عليها السياسيون وقادة الأحزاب في العراق اليوم. بطبيعة الحال سيكتبر نفس السؤال، عن علاقة المرجعية الشيعية والسيستاني بالانتخابات العراقية، وعمّا إذا كان موسم إضفاء الشرعية على المرشحين لهذه الانتخابات سيبدأ من عتبة ذلك المنزل العتيق في النجف الأشرف.

هكذا تستمر التراخي الدينية والسياسية في العراق، بمجرد أن يكون مصدر كل ما يحدث قيو يعيش فيه رجل دين إيراني في التسعينات من عمره، قوي ورابط الجاش بعزلته وانقطاعه عن العالم، مع أنه مؤثر بقوة فيه!



• صور زيارة البابا فرنسيس التاريخية إلى منزل السيستاني، تظهر لنا تعابير شفقة البابا على هذا الإمام الموهل في عزلته، لكنه يدير بلدا تعدّه كل التقارير الدولية في ذيل قائمة البلدان الفاشلة.



• العصبي على الفهم؛ لماذا لا يرفض السيستاني الدور السياسي الذي يراه له، سواء بموافقة أم بغيرها، فهو وحده القادر على إضفاء الشرعية السياسية على ما تصدره الحكومة العراقية.